رسالة

إلى الإمام الرازي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه رسالة الشيخ الإمام الراسخ المفرد المحقق كاشف الحقيقة محيي الملة والدين أبي عبد الله محمد بن علي بن العربي الطائي الأندلسي المغربي قدس الله روحه إلى الإمام العلامة النحرير المتبحر فخر الملة والدين محمد بن عمر الخطيب الرازي[1] سقى الله ثراه وجعل الجنة مثواه. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى وليّ في الله تعالى فخر الدين محمد أعلى الله همته، وأفاض عليه رحمته وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وقال رسول الله ﷺ إذا أحب أحدكم أخاه فيعلمه إياه[2] وأنا أحبك ويقول الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: ٣] وقد وقفت على بعض تواليفك وما أيدك الله به من القوة المتخيلة وما تتخيله من الفكر الجيد.

ومتى ما تغذت النفس كسب يديها فإنها لا تجد حلاوة الجود والوهب وتكون ممن أكل من تحته، والرجل من أكل من فوقه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وليعلم وليّ وفقه الله تعالى أن الوراثة الكاملة هي التي تكون من كل الوجوه لا

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م) أبو عبد الله فخر الدين الرازي. الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب، أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له: «ابن خطيب الريّ» رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه «مفاتيح الغيب» ثماني مجلدات من تفسير القرآن الكريم و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات» و«الآيات البينات» و«عصمة الأنبياء» و«أسرار التنزيل» و«المباحث المشرقية» و«أنموذج العلوم» و«أساس التقديس» و«الفراسة» و«القضاء والقدر» و«النفس» و«النبوات» و«لباب الإشارات» و«شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا» وغير ذلك.
الأعلام ٦/ ٣١٣، وطبقات الأطباء ٢/ ٢٣، والوفيات ١/ ٤٧٤، ومفتاح السعادة ١/ ٤٤٥ ـ ٤٥١.

(٢) أخرجه الترمذي (زهد ٥٤)، وأبو داود (أدب ١١٣)، وأحمد بن حنبل ٤/ ١٣٠.

من بعضها، والعلماء ورثة الأنبياء[١]، فينبغي للعاقل أن يجتهد لأن يكون وارثاً من جميع الوجوه ولا يكون ناقص الهمة.

وقد علم وليّ وفقه الله تعالى أن حسن اللطيفة الإنسانية إنما يكون بما تحمله من المعارف الإلهية وقبحها بضد ذلك، وينبغي للعالي الهمة أن لا يقطع عمره في المحدثات وتفاصيلها فيفوته حظه من ربه وينبغي له أيضاً أن يسرح نفسه من سلطان فكره فإن الفكر يعلم مأخذه والحق المطلوب ليس ذلك وإن العلم بالله خلاف العلم بوجود الله.

فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجوداً ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات، وهذا خلاف الجماعة من العقلاء والمتكلمين إلا سيدنا أبا حامد قدس الله روحه فإنه معنا في هذه القضية ويجل الله سبحانه وتعالى أن يعرفه العقل بفكره ونظره فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة وينبغي للعالي الهمة أن لا يكون تلقيه عند هذا من عالم الخيال وهي الأنوار المتجسدة الدالة على معان وراءها، فإن الخيال ينزل المعاني العقلية في القوالب الحسية كالعلم في صورة اللبن والقرآن في صورة الحبل والدين في صورة القيد.

وينبغي للعالي الهمة أن لا يكون معلمه وشاهده مؤنثاً متعلقاً بالأخذ من النفس الكلية كما ينبغي له أن لا يتعلق بالأخذ من فقير أصلاً وكل ما لا كمال له إلا بغيره فهو فقير، فهذا حال كل ما سوى الله تعالى فارفع الهمة في أن لا تأخذ علماً إلا من الله تعالى على الكشف فإن عند المحققين أن لا فاعل إلا الله فإذن لا يأخذون إلا عن الله لكن عقداً لا كشفاً وما فاز أهل الله إلا بالوصول إلى عين اليقين أنفة من بقاء مع علم اليقين.

واعلم أن أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوى أداهم فكرهم إلى حال المقلد المصمم فإن الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر فما دام الفكر موجوداً فمن المحال أن يطمئن ويسكن فللعقول حد تقف عنده من حيث قوتها في التصرف الفكري ولها صفة القبول لما يهبه الله تعالى، فإذن ينبغي للعاقل أن يتعرض لنفحات الجود ولا يبقى مأسوراً في قيد نظره وكسبه فإنه على شبهة من ذلك، ولقد أخبرني من أثق به من إخوانك وممن له فيك نية حسنة جميلة أنه رآك وقد بكيت يوماً فسألك هو ومن حضر عن بكائك قلت مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين سنة تبين لي في الساعة بدليل لاح لي أن الأمر على خلاف ما كان عندي فبكيت وقلت ولعل الذي لاح أيضاً يكون مثل الأول. فهذا قولك، ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح ولا

(١) هنا إشارة إلى قول الرسول الكريم (ص): «العلماء ورثة الأنبياء».

سيما في معرفة الله تعالى، ومن المحال أن يعرف ماهيته بطريق النظر، فما لك يا أخي تبقى في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ﷺ فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] ومثلك من يتعرض لهذه الخطة الشريفة والمرتبة العظيمة الرفيعة.

وليعلم وليّ وفقه الله تعالى أن كل موجود عند سبب ـ ذلك السبب محدث مثله فإن له وجهين: وجه ينظر به إلى سببه، ووجه ينظر به إلى موجده وهو الله تعالى، فالناس كلهم ناظرون إلى وجوه أسبابهم والحكماء والفلاسفة كلهم وغيرهم إلا المحققين من أهل الله تعالى كالأنبياء والأولياء والملائكة عليهم السلام فإنهم مع معرفتهم بالسبب ناظرون من الوجه الآخر إلى موجدهم.

ومنهم من نظر إلى ربه من وجه سببه لا من وجهه فقال حدثني قلبي عن ربي، وقال الآخر وهو الكامل حدثني ربي وإليه يشير صاحبنا العارف بقوله أخذتم علمكم عن الرسول ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، ومن كان وجوده مستفاداً من غيره فحكمه عندنا حكم لا شيء فليس للعارف معول غير الله البتة.

ثم ليعلم وليّ أن الحق وإن كان واحداً فإن له إلينا وجوهاً كثيرة مختلفة فاحذر عن الموارد الإلهيات وتجلياتها من هذا الفصل فليس الحق من كونه رباً عندك حكمه كحكمه من كونه مهيمناً ولا حكمه من كونه رحيماً كحكمه من كونه منتقماً وكذلك جميع الأسماء.

واعلم أن الوجه الإلهي الذي هو الله تعالى اسم لجميع الأسماء مثل الرب والقدير والشكور وجميعها كالذت الجامعة لما فيها من الصفات فاسم الله مستغرق جميع الأسماء فتحفظ عند المشاهدة منه فإنك لا تشاهده مطلقاً فإذا ناجاك به وهو الجامع فانظر ما يناجيك به وانظر المقام الذي تقتضيه تلك المناجاة أو تلك المشاهدة وانظر أي اسم من الأسماء الإلهية ينظر إليه فذلك الاسم هو الذي يخاطبك أو شاهدت فهو المعبر عنه بالتحول في الصورة كالغريق إذا قال يا الله فمعناه يا غياث أو يا منجي أو يا منقذ، وصاحب الألم إذا قال يا الله فمعناه يا شافي أو يا معافي وما أشبه ذلك، وقولي لك التحول في الصورة ما ذكره مسلم(١) في صحيحه أن الباري تعالى يتجلى فينكر ويتعوذ

(١) الإمام مسلم (٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ = ٨٢٠ ـ ٨٧٥ م).
مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسين. حافظ، من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وتوفي بظاهر نيسابور. أشهر كتبه «صحيح مسلم» جمع فيه اثني عشر ألف حديث، كتبها في خمس عشرة سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث، وقد شرحه كثيرون، ومن كتبه «المسند الكبير» و«الجامع» و«الكنى والأسماء»، =

منه فيتحول لهم في الصورة التي عرفوه فيها فيقرون بعد الانكار وهذا هو معنى المشاهدة هاهنا والمناجاة والمخاطبات الربانية.

وينبغي للعاقل أن لا يطلب من العلوم إلا ما يكمل فيه ذاته وينتقل معه حيث انتقل وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى من حيث الوهب والمشاهدة فإن علمك بالطب مثلاً إنما تحتاج إليه في عالم الأسقام والأمراض فإذا انتقلت إلى عالم ما فيه مرض ولا سقم من تداوي بذلك العلم؟ فالعاقل لا يسعى من حيث إنه يكون له خبرة وإن أخذه من طريق الوهب كطب الأنبياء فلا يقف معه وليطلب العلم بالله.

وكذلك العلم بالهندسة إنما تحتاج إليه في عالم المساحة فإذا انتقلت تركته في عالمه ومضت النفس ساذجة وليس عندها شيء وكذلك الاشتغال بكل علم تركته النفس عند انتقالها إلى عالم الآخرة فينبغي للعاقل أن لا يأخذ منه إلا ما مست الحاجة الضرورية إليه وليجتهد في تحصيل ما ينتقل معه حيث ينتقل، وليس ذلك إلا علمان خاصة العلم بالله تعالى والعلم بمواطن الآخرة وما تقتضيه مقاماتها حتى يمشي فيها كمشيه في منزله فلا ينكر شيئاً أصلاً فإنه من أهل العرفان لا من أهل النكران وتلك المواطن مواطن التمييز لا مواطن الامتزاج التي تعطي الغلط ويخلص إذا حصل في هذا المقام أن يتميز من حزب الطائفة التي قالت عندما تجلى لها ربها: نعوذ بالله منك لست ربناها نحن منتظرون حتى يأتينا ربنا فلما جاءهم في الصورة التي عرفوه فيها أقروا، فما أعظمها من حيرة فينبغي للعاقل الكشف عن هذين العلمين بطريق الرياضة والمجاهدة والخلوة على الطريقة المشروطة وكنت أريد أن أذكر الخلوة وشروطها وما يتجلى فيها على الترتيب شيئاً بعد شيء لكن منعني من ذلك الوقت وأعني بالوقت علماء السوء الذين أنكروا ما جهلوا وقيدهم التعصب وحب الظهور والرياسة عن الإذعان للحق والتسليم له إن لم يكن الإيمان.

وهذا آخر الرسالة والله ولي الكفاية، والحمد له أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً والصلاة على نبيه شاكراً وذاكراً.

فصل

الكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من باب الجلال والجمال فيقابلها فيها قيل للنبي عليه السلام: أرأيت ربك؛ فقال: نورٌ أنى أراه[١]. فلا

= و«الأفراد والوحدان»، و«الأقران» و«مشايخ الثوري» و«أوهام المحدثين» و«الطبقات» و«أفراد الشاميين» و«التمييز» و«العلل» وغير ذلك.

الأعلام ٧/ ٢٢١ - ٢٢٢، وتذكرة الحفاظ ٢/ ١٥٠، وتهذيب ١٠/ ١٢٦، وابن خلكان ٢/ ٩١، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣، ومعجم المطبوعات ١٧٤٥.

(١) أخرجه مسلم في (الصحيح ١٦١)، والترمذي في (السنن ٣٢٨٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ =